العذاب

عناصر الموضوع

مفهوم العذاب	٢١٢
العذاب في الاستعمال القرآني	٢١٣
الألفاظ ذات الصلة	٢١٤
أنواع العذاب	٢١٦
الأسباب الموجبة للعذاب	٢٢٦
استعجال العذاب	٢٣١
موانع العذاب	٢٣٣
الحكمة من العذاب	٢٣٧

مفهوم العذاب

أولاً: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس في مادة «عذب»: «العين والذال والباء أصل صحيح، لكن كلماته لا تكاد تقاس، ولا يمكن جمعها إلى شيء واحد، العذاب: يقال منه: عذب تعذيبًا، وناس يقولون: أصل العذاب الضرب، واحتجوا بقول زهير:

وخلفها سائق يحدو إذا خشيت نه العذاب تمد الصلب والعنقا

قال: ثم استعير ذلك في كل شدة»[(١)].

وقال ابن منظور: «والعذاب: النكال والعقوبة، يقال: عذبته تعذيبًا وعذابًا، وكسره الزجاج على أعذبة، فقال في قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]؛ قال أبو عبيدة: تعذب ثلاثة أعذبة؛ قال ابن سيده: فلا أدري، أهذا نص قول أبي عبيدة، أم الزجاج استعمله، وقد عذبه تعذيبًا، ولم يستعمل غير مزيد»[(٢)].

وقال الفيروز آبادي: «والعذاب: النكال، أعذبة وقد عذبه تعذيبًا، وأصابه عذاب عذبين، كبلغين، أي: لا يرفع عنه العذاب»[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

العذاب: «هو ألمٌ جسديٌ أو نفسيٌ شديد»[(٤)].

وقيل: «كل ما شق على النفس احتماله وآلمها»[(٥)].

وقيل:« كل مؤلم للنفس إذا كان جزاء على سوء»[(٦)].

بعد سرد أقوال علماء اللغة في معنى العذاب، نجد أن معنى العذاب في الاصطلاح لا يبتعد كثيرًا عن المعنى اللغوي، حيث يأتي العذاب بمعنى العقاب والنكال، وكل ما شق على النفس.

(١) مقاييس اللغة ٤/ ٢٦٠.
(٢) لسان العرب ١/ ٥٨٥.
(٣) القاموس المحيط ص ١١٣
(٤) معجم اللغة العربية المعاصرة، د.أحمد مختار، ٢/ ١٤٧٤.
(٥) معجم لغة الفقهاء، قلعجي ١/ ٣٠٧.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٣٩.
وانظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٣٩

العذاب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عذب) الدالة على «العذاب» في القرآن الكريم (٣٧١) مرة[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة:٢٦]
الفعل المضارع	٣٧	﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت:٢١]
اسم الفاعل	٤	﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء:١٥]
اسم المفعول	٤	﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ [الشعراء:٢١٣]
الاسم	٣٢٢	﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة:٨٥]

ذكر بعض أصحاب الوجوه والنظائر أن (العذاب) في القرآن على تسعة أوجه[٢]، وأوصلها بعضهم إلى عشرة أوجه[٣]، ولكن بتدبر هذه الأوجه والرجوع إلى كتب التفسير نجد أن العذاب لم يخرج عن معناه اللغوي: وهو النكال والعقوبة[٤]، أو اسمٌ لما استمر ألمه[٥].

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

أي: «ولقد أخذنا هؤلاء المشركين بعذابنا، وأنزلنا بهم بأسنا وسخطنا، وضيقنا عليهم معايشهم، وأجدبنا بلادهم، وقتلنا سراتهم بالسيف»[٦].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٢٧٦.
(٢) الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٤٣-٣٤٤.
(٣) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٤٤٨- ٤٥١.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥٨٣.
(٥) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٤٤٨.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٩٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الألم:

الألم لغة:

أصل مادة (ألم) تدل على الوجع، يقال: وجع أليم[١].

الألم اصطلاحًا:

هو الوجع الذي يلحق بالجسد، وينتج عن عقاب، أو مرض وما شابه[٢].

الصلة بين العذاب والألم:

«أن العذاب أخص من الألم، وذلك أن العذاب هو الألم المستمر، والألم يكون مستمرًا وغير مستمر، ألا ترى أن قرصة البعوض ألم وليس بعذاب، فإن استمر ذلك قلت عذبني البعوض الليلة، فكل عذاب ألم وليس كل ألم عذابًا[٣].

٢ العقاب:

العقاب لغة:

مادة (عقب) لها أصلان صحيحان: أحدهما: يدل على تأخير شيء وإتيانه بعد غيره. والآخر: يدل على ارتفاع وشدة وصعوبة[٤].

العقاب اصطلاحًا:

العقاب: جزاء الشر[٥]، أو هو ما يلحق الإنسان بعد الذنب من المحنة[٦].

الصلة بين العذاب والعقاب:

«أن العقاب ينبئ عن استحقاق، وسمي بذلك؛ لأن الفاعل يستحقه عقيب فعله، ويجوز أن يكون العذاب مستحقًا وغير متسحق[٧].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٢٦.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٢٠.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٣٩.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٧٧.
(٥) الكليات، الكفوي ص٦٥٤.
(٦) كشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ١١٩٢. بتصرف
(٧) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٤٠.

٣ التنكيل:

التنكيل لغة:

قال ابن منظور: «نكل به تنكيلًا إذا جعله نكالًا وعبرة لغيره، ويقال: نكلت بفلان إذا عاقبته في جرم أجرمه عقوبة تنكل غيره عن ارتكاب مثله، وأنكلت الرجل عن حاجته إنكالًا إذا دفعته عنها»[١]

التنكيل اصطلاحًا:

هو العقاب بما يروع ويردع ويجعله عبرةً ودرسًا لغيره[٢].

الصلة بين العذاب والتنكيل:

التنكيل هو جزء من العذاب، بل هو ناتج عن العذاب نفسه.

٤ الجزاء:

الجزاء لغة:

المكافأة على الشيء[٣].

الجزاء اصطلاحًا:

هو الغناء والكفاية والمكافأة بالشيء وما فيه الكفاية من المقابلة إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣][٤].

الصلة بين الجزاء والعذاب:

الجزاء هو ما يناله الإنسان على عمله الشر من عذاب، فالعذاب ناتج عن الجزاء.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٦٧٧.

(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، ٣/ ٢٢٨٤.

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ١٤٣، الكليات، الكفوي ص ٣٥٦، تاج العروس، الزبيدي ٣٧/ ٣٥١.

(٤) انظر: المفردات، الراغب ص ١٩٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٣٨٠.

أنواع العذاب

يمكن تقسيم العذاب إلى نوعين رئيسين:

أولًا: عذاب حسي:

ذكر القرآن الكريم صورًا من العذاب الحسي الذي لحق وسيلحق بالكفار والعصاة، ومن تلك الصور:

١. الغرق والطوفان.

الذين عذبوا بالغرق والطوفان كثر، أذكر بعضًا منهم على سبيل المثال لا الحصر:

١. قوم نوح.

فقوم نوح عليه السلام هم أول قوم من الأقوام ينزل بهم هذا النوع من العذاب.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:١٤].

لقد مكث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله عز وجل، ولكنهم كذبوه، فأخذهم الطوفان، والحال أنهم كانوا مستمرين على الظلم والكفر، دون أن تؤثر فيهم مواعظ نبيهم ونذره، والطوفان: هو ما يطلق على كثرة وشدة السيل والريح والظلام، وقد غلب إطلاقه على طوفان الماء[١].

وقال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾ [نوح:٢٥].

قال ابن كثير: «من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم أغرقوا فأدخلوا نارًا»[٢]

٢. فرعون وجنوده.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠].

أي: فأخذنا فرعون وجنوده بالعقاب الأليم أخذًا سريعًا حاسمًا، فأغرقناه هو وجنوده في البحر فكانت عاقبتهم الإغراق الذي أزهق أرواحهم واستأصل باطلهم[٣].

٣. مملكة سبأ.

قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٦-١٧].

والمعنى: فأعرض أهل سبأ عن شكرنا وطاعتنا، فكانت نتيجة ذلك، أن أرسلنا عليهم السيل الجارف، الذي اجتاح أراضيهم، فأفسد مزارعهم، وأجلاهم عن ديارهم، ومزقهم شر ممزق وبدلناهم بالجنان اليانعة التي كانوا يعيشون فيها،

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٤٤٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٢٣٦.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٣٦٤.

بساتين أخرى قد ذهبت ثمارها الطيبة اللذيذة، وحلت محلها ثمار مرة لا تؤكل، وتناثرت في أماكنهم الأشجار التي لا تسمن ولا تغني من جوع، بدلا من تلك الأشجار التي كانت تحمل لهم ما لذ وطاب، وعظم نفعه(١).

٢. الريح.

وهذا النوع من العذاب لحق بقوم عاد لما كفروا بربهم.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ [فصلت:١٥-١٦].

أي: فأرسلنا على قوم عاد ريحًا شديدة الهبوب والصوت، وشديدة البرودة أو الحرارة في أيام نحسات أو مشؤومات نكدات عليهم بسبب إصرارهم على كفرهم وفعلنا ذلك معهم لنذيقهم العذاب المخزي لهم في الحياة الدنيا(٢).

وبنفس المعنى في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف:٢٤].

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٣/ ٨٤.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ٧.

وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم إذا رأى ريحًا كرهه وظهر ذلك في وجهه، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: (ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعًا ضاحكًا، حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم، قالت: وكان إذا رأى غيما أو ريحا، عرف ذلك في وجهه، فقالت: يا رسول الله أرى الناس، إذا رأوا الغيم فرحوا، رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية؟ قالت: فقال صلى الله عليه وسلم: يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤](٣).

٣. الحاصب(٤).

الذين عذبوا بهذا النوع من العذاب:

١. قوم لوط.

قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ [العنكبوت:٤٠].

أي: فمن هؤلاء الكافرين من أهلكناه، بأن أرسلنا عليه ريحًا شديدة رمته بالحصباء

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح، رقم ٨٩٩، ٢/ ٦١٦.
(٤) الحاصب: الريح الشديدة تحمل التراب والحصباء.
انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١٧٧.

فأهلكته[1].

قال القرطبي: «قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ يعني: قوم لوط، والحاصب ريح يأتي بالحصباء، وهي الحصى الصغار، وتستعمل في كل عذاب[2].

وبنفس المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر:٣٤].

٢. أصحاب الفيل.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل:١-٥].

قوله تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي: من طين متحجر محرق، وعن عكرمة: كانت ترميهم بحجارة معها كالحمصة، فإذا أصاب أحدهم حجر منها، خرج به الجدري، وكان ذلك أول يوم رئي فيه الجدري بأرض العرب[3].

وهو الذي حذر الله المشركين منه، قال تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك:١٧].

أي: بل أأمنتم- أيها الناس- من السماء، وهو الله عز وجل بسلطانه وقدرته، أن يرسل عليكم حاصبًا أي: ريحًا شديدة مصحوبة بالحصى والحجارة التي تهلك، فحينئذ ستعلمون عند معاينتكم للعذاب، كيف كان إنذاري لكم متحققًا وواقعًا وحقًا[4]، وبهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الإسراء:٦٨].

٤. الجوع والعطش وضيق الأرزاق.

وهو ما عذب به قوم سبأ، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢].

أي: وجعل الله قرية موصوفة بهذه الصفات مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم بهذه النعم، فكان موقف أهل هذه القرية من تلك النعم الجليلة، أنهم جحدوا هذه النعم، ولم يقابلوها بالشكر، وإنما قابلوها بالإشراك بالله تعالى مسدي هذه النعم، فأذاق سبحانه أهلها لباس الجوع والخوف، بسبب ما كانوا يصنعونه من الكفر والجحود والعتو عن أمر الله ورسله[5].

وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٦/ ٢٤٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ٣٤٥.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٣٤.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٩/ ٢٤.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٠٩.

﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

قال ابن كثير: «بان النقص في الثمار والزروع بسبب المعاصي ليذيقهم بعض الذي عملوا»، وقال: «يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختبارًا منه على صنيعهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: عن المعاصي»[(١)].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، قال: (أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (يا معشر المهاجرين خمسٌ إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين، وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله، وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم)[(٢)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٣٢٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه، رقم ٤٠١٩، ٢/ ١٣٣٢، والحاكم في المستدرك، ٤/ ٥٤٠.
قال الحاكم: «صحيح الإسناد» ولم يتعقبه الذهبي.

٥. الخسف[(٣)].

وهو العذاب الذي لحق بقارون لما بغى وأفسد في الأرض، قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١].

وقوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا﴾ من الخسف وهو النزول في الأرض، يقال: خسف المكان خسفا- من باب ضرب- إذا غار في الأرض[(٤)].

قال ابن كثير: «لما ذكر الله تعالى اختيال قارون في زينته، وفخره على قومه وبغيه عليهم، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض، كما ثبت في الصحيح عند البخاري من حديث الزهري عن سالم أن أباه حدثه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بينما رجلٌ يجر إزاره من الخيلاء، خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة)[(٥)]»[(٦)].

(٣) الخسف: هو الذاهب بالشيء، ومنه خسفت الأرض، أي: غارت بما عليها واختفى بداخلها.
انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٢٣٤.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٢٣.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم ٣٤٨٥، ٤/ ١٧٧.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٢٥٥.

وهو أحد أنواع العذاب التي تكون في آخر الزمان كما في حديث عمران بن حصين حيث سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(في هذه الأمة خسفٌ ومسخٌ وقذفٌ)**، فقال رجلٌ من المسلمين: يا رسول الله، ومتى ذاك؟ قال: **(إذا ظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور)**[1].

وقد حذر الله العصاة من هذا العذاب، فقال: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل:٤٥].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [سبأ:٩].

ومن صور الخسف الزلازل التي تميد بالأرض فتخرب المدن بعد عمارها، وقد ذكر صلى الله عليه وسلم أن الزلازل تكثر بين يدي الساعة، قال صلى الله عليه وسلم: **(لا تقوم الساعة حتى تقتتل... وتكثر الزلازل)**[2].

قال ابن حجر: «وقد وقع في كثير من البلاد الشمالية والشرقية والغربية كثير من الزلازل، ولكن الذي يظهر أن المراد بكثرتها شمولها ودوامها»[3].

٦. المسخ.

المسخ: هو تحويل صورة إلى ما هو أقبح منها[4]، أو هو كما قال الراغب الأصفهاني في مفرداته: «تشويه الخلق والخلق، وتحويلهما من صورة إلى صورة، قال بعض الحكماء: المسخ ضربان: مسخ خاص يحصل في الفينة بعد الفينة وهو مسخ الخَلْق، ومسخ قد يحصل في كل زمان ومكان، وهو مسخ الخُلُق؛ وذلك بأن يصير الإنسان متخلقًا بخلق ذميم من أخلاق بعض الحيوانات، نحو أن يصير في شدة الحرص كالكلب، وفي الشره كالخنزير»[5].

وقد عذب الله عز وجل بني إسرائيل بهذا النوع من العذاب عندما اعتدوا في السبت، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة:٦٥].

يرى مجاهد أنهم لم تمسخ صورهم ولكن مسخت قلوبهم، أي: إنهم مسخوا مسخًا نفسيًا فصاروا كالقردة في شرورها

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في الخسف، رقم ٢٢١٢/ ٤/ ٤٩٥. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٤/ ٣٩٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب خروج النار، رقم ٧١٢١، ٩/ ٥٩.

(٣) فتح الباري، ١٣/ ٨٧.

(٤) التعريفات، الجرجاني، ص ٢٢٥.

(٥) المفردات، ص ٤٦٨

وإفسادها لما تصل إليه أيديها، و لكن جمهور المفسرين على أنهم مسخوا على الحقيقة ثم ماتوا بعد ذلك بوقت قصير[1]

وأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحذر أهل الكتاب - إذا كذبوه وخالفوا أمره - أن يحل بهم ما حل بأسلافهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

وهذا النوع من العذاب الذي أحله الله بالسابقين؛ توعد الله به اللاحقين المخالفين من هذه الأمة، فقد أخرج البخاري رحمه الله عن عبد الرحمن بن غنم الأشعري، قال حدثني أبو عامر أو أبو مالك الأشعري- والله ما كذبني- سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(ليكونن من أمتي أقوامٌ، يستحلون الحر[2] والحرير، والخمر والمعازف، ولينزلن أقوامٌ إلى جنب علمٍ، يروح عليهم بسارحةٍ لهم، يأتيهم - يعني: الفقير - لحاجةٍ فيقولون: ارجع إلينا غدًا، فيبيتهم الله، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردةً وخنازير إلى يوم القيامة)**[3].

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا العذاب يكون في هذه الأمة، ووصف ذنب أولئك الممسوخين والذي بسببه يمسخهم الله، فقال صلى الله عليه وسلم: **(سيكون في أمتي خسفٌ ومسخٌ وقذفٌ)**[4].

٧. الصيحة[5].

وهي عذاب الله الذي عذب به قوم صالح، قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود:٦٧].

والصيحة هي كما قال القرطبي في تفسيرها: «صيح بهم فماتوا، وقيل: صاح بهم جبريل، وقيل: غيره، وقال أيضًا: كانت صيحة شديدة خلعت قلوبهم»[6].

والمعنى: وأخذ الذين ظلموا من قوم صالح عليه السلام عن طريق الصيحة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ١٧٤، التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ١٦٠.

(٢) الحر بكسر الحاء هو الفرج، جاء في الحديث كناية عن الزنا.
انظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ٦/ ٥١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأشربة، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر، رقم ٥٥٩٠، ٧/ ١٠٦.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في الخسف، رقم ٢١٥٢، ٤/ ٤٥٦.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٤/ ٣٩٣.

(٥) الصياح: الصوت، وهو صوت كل شيء إذا اشتد، والصيحة هي العذاب، كعذاب قوم صالح.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٥٢١.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٤٢، ٩/ ٦١.

الشديدة التي صيحت بهم بأمر الله عز وجل فأصبحوا بسببها في ديارهم جاثمين أي: هلكى صرعى، ساقطين على وجوههم، بدون حركة[1]، وبهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾[القمر:٣١].

وجاء في السنة ما يوضح ذلك، فعن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما مر النبي صلى الله عليه وسلم بالحجر قال: **(لا تسألوا الآيات؛ فقد سألها قوم صالح فكانت - يعني: الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، فأخذتهم الصيحة فأهمد الله من تحت السماء منهم إلا رجلًا واحدًا كان في حرم الله، قيل من هو؟ قال: أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه)**[2].

٨. القتل والصلب وتقطيع الأعضاء والنفي من الأرض.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:٣٣].

والمعنى: إنما جزاء أي: عقاب الذين يحاربون الله ورسوله أي: يخالفونهما ويعصون أمرهما، ويعتدون على أوليائهما ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي: يعملون بسرعة ونشاط في الأرض لا من أجل الإصلاح وإنما من أجل الإفساد فيها عن طريق تهديد أمن الناس، والاعتداء على أموالهم وأنفسهم، جزاء هؤلاء ﴿أَن يُقَتَّلُوٓا۟﴾ والتقتيل هو القتل، إلا أنه ذكر بصيغة التضعيف لإفادة الشدة في القتل وعدم التهاون في إيقاعه عليهم، لكونه حق الشرع وللإشارة إلى الاستمرار في قتلهم ما داموا مستمرين في الجريمة فكلما كان منهم قتل قتلوا.

﴿أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟﴾ والتصليب: وضع الجاني الذي يراد قتله مشدودًا على مكان مرتفع بحيث يرى بعد القتل ليكون عبرة لغيره، وردعًا له عن ارتكاب المعاصي والجرائم، قالوا: ويكون الصلب لمدة ثلاثة أيام وقيل: لمدة يوم واحد. وجيء هنا أيضًا بصيغة التضعيف لإفادة التشديد في تنفيذ هذه العقوبة وإثبات أنه لا هوادة فيها.

﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي: تقطع مختلفة، فلا تكون اليد والرجل المقطوعتان من جانب واحد بل

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم ٣٢٤٨، ٢/ ٣٥١.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد.

تكونان من جانبين مختلفين.

﴿أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يطردوا من الأرض التي اتفقوا فيها على الإجرام إلى أرض أخرى ليتشتت شملهم، ويتفرق جمعهم، مع مراقبتهم والتضييق عليهم. وفسر بعضهم النفي بالحبس في السجون، لأن فيه إبعادا لهم وتفريقا لجمعهم[1].

ثانيًا: العذاب المعنوي:

وقد ذكر القرآن الكريم صورًا من العذاب المعنوي، والتي منها:

١. الخزي والصغار.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٨٥].

يبين الله عز وجل العقاب الذي سيلحق بالذين يفرقون بين أحكام الله عز وجل بقوله تعالى: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ اسم الإشارة (ذلك) مشار به إلى القتل والإخراج من الديار، اللذين نقضوا بهما عهد الله بغيًا وكفرًا والخزي في الدنيا هو الهوان والمقت والعقوبة ومن مظاهره: ما لحق اليهود بعد تلك الحروب من المذلة بإجلاء بنى قينقاع والنضير عن ديارهم، وقتل بنى قريظة وفتح خيبر، وما لحقهم بعد ذلك من هوان وصغار، وتلك سنة الله في كل أمة لا تتمسك بدينها ولا تربط شئونها بأحكام شريعتها وآدابها[2].

وهو العقاب الذي سيلحق بمن منع الذكر والصلاة في مساجد الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:١١٤].

قال ابن كثير: «عندما حج النبي صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع لم يجترئ أحد من المشركين أن يحج أو أن يدخل المسجد الحرام، وهذا هو الخزي في الدنيا لهم، المشار إليه بقوله تعالى: لهم في الدنيا خزيٌ لأن الجزاء من جنس العمل»[3].

وهو العقاب الذي سيلحق بالمتكبر المغرور بنفسه، قال تعالى: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/ ١٤٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٨.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/ ١٢٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٣٨٧.

لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ﴾ [الحج:٩]. أي: هوان وذلة وصغار[١].

وهو ما سيلحق الكفار يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٢]

قال سيد طنطاوي في تفسير الآية: «وقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾ في مقام التعليل لضراعتهم بأن يبعدهم عن النار، أي: أبعدنا يا ربنا عن عذاب النار، فإنك من تدخله النار تكون قد أخزيته أى أهنته وفضحته على رؤوس الأشهاد، والخزي: مصدر خزي يخزى بمعنى ذل وهان بمرأى من الناس، وفي هذا التعليل مبالغة في تعظيم أمر العقاب بالنار»[٢].

٢. الفضيحة.

من أسماء سورة التوبة الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين وبينت نواياهم الخبيثة، وهذه بعض الآيات من السورة تفضحهم.

قال تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٤-٦٦].

قال صاحب المنار: «هذه الآيات في بيان شأن آخر من شئون المنافقين التي كشفت سوأتهم فيها غزوة تبوك، أخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ ﴾ قال: كانوا يقولون القول فيما بينهم ثم يقولون: عسى أن لا يفشي علينا هذا، وعن قتادة قال: كانت هذه السورة تسمى الفاضحة، فاضحة المنافقين، وكان يقال لها المنبئة، أنبأت بمثالبهم وعوراتهم»[٣].

الآيات التي فضحت المنافقين في القرآن الكريم كثيرة، أذكر بعضًا منها:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ٢/ ١٦٢٨.
(٢) التفسير الوسيط، ٢/ ٣٧٤.
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٥٣.

﴿ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ٨-١٦]

قال الزمخشري: «وصف الله عز وجل حال الذين نافقوا في ثلاث عشرة آية، نعى عليهم فيها خبثهم، ومكرهم، وفضحهم، وسفههم، واستجهلهم، واستهزأ بهم، وتهكم بفعلهم، وسجل طغيانهم، ودعاهم صما بكمًا عميا، وضرب لهم الأمثال الشنيعة»[1].

فالآيات السابقة فضحت المنافقين بشكل واضح وصريح على رؤوس الأشهاد، وأظهرتهم على حقيقتهم.

وفي موطن آخر يفضح الله المنافقين ويكذبهم، قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۘ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [المنافقون: ١-٣].

أي: إذا حضر المنافقون إلى مجلسك يا محمد صلى الله عليه وسلم، قالوا لك على سبيل الكذب والمخادعة والمداهنة، نشهد أنك رسول من عند الله تعالى، وأنك صادق فيما تبلغه عن ربك، فيفضحهم الله ويكذبهم ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ والله تعالى يشهد إن المنافقين لكاذبون في قولهم: نشهد إنك لرسول الله، لأن قولهم هذا يباين ما أخفته قلوبهم المريضة، من كفر ونفاق وعداوة لك وللحق الذي جئت به[2].

٣. الإهانة.

جاء في مادة (هون): «الهون: الخزي، والهون، بالضم: الهوان، والهون والهوان: نقيض العز»[3]، ورجل فيه مهانة أي ذلٌ وضعف[4].

وأذكر بعض الآيات التي تحدثت عن هذا النوع من العذاب:

قال تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: ٣٧].

المهين؛ هو العذاب الذي يقترن به الخزي والذل، وهو أنكى وأشد على المعذب[5].

وقال تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٩].

يعني: أنه يبقى في العذاب والهوان

(١) الكشاف، ١/ ٥٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٦٤.

(٣) لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٤٣٨.

(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ٣٦/ ٢٩٠.

(٥) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥٢.

صاغرًا حقيرًا إلى ما لا نهاية[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[آل عمران:١٧٨].

أي: عذاب يوقعهم في الذل والمهانة والصغار في الدنيا والآخرة[2].

٤. الذل.

وهو العقاب الذي سيلحق بمن اتخذ آلهة أخرى غير الله عز وجل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ﴾[الأعراف: ١٥٢].

والمعنى: إن الذين اتخذوا العجل معبودًا، واستمروا على ضلالتهم سيصيبهم ذل وهوان وصغار في الحياة الدنيا، وبمثل هذا الجزاء في الآخرة أيضًا[3].

وهو العقاب الذي لحق ببني إسرائيل؛ لأنهم كفروا بآيات الله عز وجل، وقتلوا أنبيائهم فكان الذل والهوان جزاؤهم، قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

[انظر: الإهلاك: وسائل الإهلاك]

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ٢٤٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٣٤٧.
(٣) انظر: الدر المصون، السمين الحلبي ٥/ ٤٧٠.

الأسباب الموجبة للعذاب

الأسباب التي توجب العذاب على المعذب كثيرة، ستتعرض لأهمها في هذا المبحث.

أولًا: الشرك والكفر:

مما يوقفنا على عظم جريمة الشرك والكفر قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم:٨٨-٩١].

وقال تعالى محذرًا من الشرك الذي أحل العقوبة بالأمم السابقة: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف:٥٩].

قال ابن كثير: «الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم، وكذلك أنتم أيها المشركون: احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي ونذر»[4].

لقد جعل الله العقوبة للأمم الكافرة سنة له في خلقه، فقال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣].

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ١٦٩.

قال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره: فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك يا محمد إلا سنة الله بهم في عاجل الدنيا على كفرهم به أليم العقاب، يقول: فهل ينتظر هؤلاء إلا أن أحل بهم من نقمتي على شركهم بي وتكذيبهم رسولي مثل الذي أحللت بمن قبلهم من أشكالهم من الأمم»(١).

وقد جاءت الآيات تتوعد الأمم الكافرة بسنة الله الماضية في أهل الشرك والكفر، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء:٥٨].

قال ابن كثير: «هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتم وقضى بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ أنه ما من قرية إلا سيهلكها بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم عذابًا شديدًا إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم كما قال تعالى عن الأمم الماضين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:١٠١].

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق:٨-٩]»(٢).

وقال القرطبي: «أجرى الله العذاب على الكفار، وجعل ذلك سنة فيهم، فهو يعذب بمثله من استحقه لا يقدر أحد أن يبدل ذلك ولا أن يحول العذاب عن نفسه إلى غيره»(٣).

ثانيًا: الطغيان والظلم:

ذكر القرآن الكريم أن سبب مصرع كثير من الأمم، الظلم والطغيان، كقوم عاد وثمود وفرعون، فقال تعالى: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:٩-١٤].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء:١١].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:٥٣].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: إن الله لا يغير ما بقوم من عافية ونعمة؟ فيزيل ذلك عنهم ويهلكهم حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك بظلم بعضهم بعضًا واعتداء بعضهم على بعض، فتحل بهم حينئذ عقوبته وتغييره»(٤)

والظلم من المعاصي التي يعجل الله

(١) جامع البيان، ٢٠/ ٤٨٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٤٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٣٦٠.
(٤) جامع البيان، ١٦/ ٣٨٢.

عقوبتها في الدنيا قبل الآخرة، فعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**ما من ذنبٍ أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم**)[1].

وقد تتأخر عقوبة الظلم إلى حين وأجل يعلمه الله، فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**) قال ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢][2].

ثالثًا: كثرة المعاصي والمنكرات وقلة الأمر بالمعروف:

من الأسباب التي تحل العذاب العاجل في الأمم فشو المنكرات وشيوعها، وذلك عندما تقصر الأمة بواجبها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٥].

والمراد بالفتنة هنا العذاب الدنيوي، كالأمراض، والقحط، واضطراب الأحوال، وتسلط الظلمة، وعدم الأمان وغير ذلك من المحن والمصائب والآلام التي تنزل بالناس بسبب غشيانهم الذنوب، وإقرارهم للمنكرات، والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[3].

عن زينب بنت جحشٍ رضي الله عنها: (**أن النبي صلى الله عليه وسلم، دخل عليها فزعًا يقول: (لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه) وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحشٍ فقلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم إذا كثر الخبث)**[4].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، قال: (**أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (يا معشر المهاجرين خمسٌ إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا**)[5].

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٠٣٧٥، ٣٤/ ١٠، والترمذي في سننه، رقم ٢٥١١، ٤/ ٦٦٤.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢/ ٥٨٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وكذلك أخذ ربك)، رقم ٤٦٨٦، ٦/ ٧٤.

(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ٨/ ٤٦٥٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم ٣٣٤٦، ٤/ ١٣٨.

(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه، رقم ٤٠١٩، ٢/ ١٣٣٢، والحاكم في المستدرك، ٤/ ٥٤٠.

رابعًا: كفران النعم:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧].

قال الإمام الطبري: «ولئن كفرتم أيها القوم نعمة الله فجحدتموها بترك شكره عليها وخلافه في أمره ونهيه وركوبكم معاصيه إن عذابي لشديد، أعذبكم كما أعذب من كفر بي من خلقي»(١).

وقد ذكر القرآن الكريم مصارع الأمم التي كفرت بنعم الله عز وجل فقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢].

قال المناوي: «ما زال شيء عن قوم أشد من نعمة لا يستطيعون ردها، وإنما ثبتت النعمة بشكر المنعم عليه للمنعم، وفي الحكم: من لم يشكر النعمة فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها، وقال الغزالي: والشكر قيد النعم، به تدوم وتبقى، وبتركه تتحول»(٢).

خامسًا: ترك الصلاة:

من تهاون بالصلاة وضيعها فهو متوعد بأشد أنواع العذاب في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

والصلاة من أعظم الذكر.

وقد جاءت آيات عديدة في القرآن الكريم تتحدث عن العذاب الذي أعده الله لتاركي الصلاة، فقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩].

وقال أيضًا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٤-٥].

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أمته بالعذاب الذي يلقاه في قبره المتهاون بالصلاة، ففي الصحيح عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل رأى أحد منكم من رؤيا؟ قال: فيقص عليه من شاء الله أن يقص. وإنه قال ذات غداة: إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه، فيثلغ رأسه فيتدهده الحجر ها هنا، فيتبع الحجر

قال الحاكم: «صحيح الإسناد» ولم يتعقبه الذهبي.

(١) جامع البيان، ١٣/ ١٨٦.

(٢) فيض القدير ٣/ ٤١٨.

فيأخذه، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل به المرة الأولى، قال: قلت لهما سبحان الله! ما هذان؟ قال قالا لي: انطلق انطلق إلى أن قال: أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر؛ فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة)[1]، ومعنى يثلغ رأسه: أي يشقه، ويتدهده: يتدحرج.

سادسًا: منع الزكاة:

قاتل الصديق رضي الله عنه من فرق بين الصلاة والزكاة، وأقره على ذلك الصحابة رضوان الله عليهم، وما ذاك إلا لعظيم مكانتها في هذا الدين.

فإذا كانت الزكاة بهذه المكانة فلا عجب أن رتب الشارع العقوبات العظيمة على من منعها، ومن تأمل العذاب المترتب على منع الزكاة أدرك تمام الحكمة الإلهية في المناسبة بين الذنب وبين العقوبة، فإذا كان من معاني الزكاة البركة والنماء، فإن من عقوبة منعها منع المطر الذي تنمو به الخيرات، وتخرج الأرض بركتها، ومن عقوبتها أيضًا أن يبتلى الناس بالسنين وهي الجدب والقحط، فلما منعوا فضول أموالهم؛ شدد الله عليهم في أرزاقهم.

قال ابن القيم رحمه الله: «وتأمل حكمة الله في حبس الغيث عن عباده وابتلائهم بالقحط إذا منعوا الزكاة وحرموا المساكين؛ كيف جوزوا على منع ما للمساكين قبلهم من القوت بمنع الله مادة القوت والرزق وحبسها عنهم، فقال لهم بلسان الحال: منعتم الحق فمنعتم الغيث، فهلا استنزلتموه ببذل ما لله قبلكم»[2].

أما العذاب الذي سيلحق مانعي الزكاة في الآخرة يتضح من خلال قول الحق تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

سابعًا: ترك الجهاد في سبيل الله:

بين النبي صلى الله عليه وسلم مكانة الجهاد في سبيل الله بأنه ذروة سنام هذا الإسلام؛ وبين أيضًا العاقبة المترتبة على تركه، وهذا على سبيل المقابلة، فلما كان الجهاد سبيل العز والسؤدد؛ كان تركه سبيل الذلة والمسكنة.

فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، رقم ٧٠٤٧، ٩/ ٤٤.

(٢) مفتاح دار السعادة، ١/ ٣١٥.

تبايعتم بالعينة[1]، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد؛ سلط الله عليكم ذلًا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)[2].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[التوبة: ٣٩].

قال نجدة بن نفيع رضي الله عنه: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن قول الله عز وجل: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال: استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيًا من أحياء العرب فتثاقلوا؛ فأمسك عنهم المطر، وكان عذابهم[3].

[انظر: الإهلاك: أسباب الإهلاك]

استعجال العذاب

أخبر تعالى في آيات كثيرة من القرآن الكريم أن المشركين استعجلوا العذاب في الدنيا من باب الاستهزاء والسخرية فنزل بهم العذاب سريعًا.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

قال الزمخشري: «وهذا أسلوب من الجحود بليغ، يعني: إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل، أو بعذاب آخر، ومرادهم نفي كونه حقًا، وإذا انتفى كونه حقًا لم يستوجب منكره عذابًا، فكان تعليق العذاب بكونه حقًا، مع اعتقاد أنه ليس بحق كتعليقه بالمحال في قولك: إن كان الباطل حقًا فأمطر علينا حجارة من السماء، فإن قلت: ما فائدة قوله: من السماء والأمطار لا تكون إلا منها؟، قلت: كأنهم يريدون أن يقولوا: فأمطر علينا السجيل وهي الحجارة المسومة للعذاب، فوضع حجارة من السماء موضع السجيل»[4].

وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١].

(١) العينة: أن يبيع سلعة بثمن لأجل ثم يشتريها منه بأقل منه.
انظر: التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي ١/ ٨٤.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، أبواب الإجارة، باب في النهي عن العينة، ٣/ ٢٧٤.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ١٦.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم ٢٥٠٤، ٢/ ١١٤.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد.

(٤) الكشاف، ٢/ ٢١٦.

قال الألوسي: «قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي: دعا داع به، فالسؤال بمعنى الدعاء، والمراد: استدعاء العذاب وطلبه، والسائل هو النضر بن الحارث- كما روى النسائي وجماعة وصححه الحاكم- حيث قال إنكارًا واستهزاءً: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وقيل السائل: أبو جهل، حيث قال: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾[1].

قال طنطاوي: «وعلى أية حال فسؤالهم عن العذاب، يتضمن معنى الإنكار والتهكم، كما يتضمن معنى الاستعجال، كما حكته بعض الآيات الكريمة، ومن بلاغة القرآن، تعدية هذا الفعل هنا بالباء، ليصلح لمعنى الاستفهام الإنكاري، ولمعنى الدعاء والاستعجال»[2].

ولما توعد الله عز وجل الكفار بالعذاب في الآخرة في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٨].

استعجلوا ذلك العذاب، وقالوا: متى يحصل ذلك كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: ٥٠-٥١].

والمعنى: أخبروني أيها الجاهلون الحمقى: أي دافع جعلكم تستعجلون نزول العذاب؟ سواء أكان بالليل أم بالنهار لا يمكن دفعه، ولا يمكن أن يتعجله عاقل، لأنه كما قال الزمخشري: «أن العذاب كله مكروه، مر المذاق، موجب للنفار منه، فكيف ساغ لكم أن تستعجلوا نزول شيء فيه هلاككم ومضرتكم؟!!»[3].

فالآية الكريمة توبيخ لهم على استعجالهم وقوع شيء من شأن العقلاء أنهم يرجون عدم وقوعه، ولذا قال القرطبي: «قوله: «ماذا يستعجل منه المجرمون» استفهام معناه التهويل والتعظيم، أي: ما أعظم ما يستعجلون به، كما يقال لمن يطلب أمرا تستوخم عاقبته: ماذا تجنى على نفسك؟!»[4].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ [الرعد: ٦].

أي: أن هؤلاء المشركين بلغ بهم الحال في الطغيان، أنهم كانوا إذا هددهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعقاب الله إذا ما استمروا في كفرهم، سخروا منه، وتهكموا

(١) روح المعاني، ١٥/ ٦٢.
(٢) التفسير الوسيط، ١٥/ ٩٢.
(٣) الكشاف، ٢/ ٣٥١.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٣٥٠.

به وقالوا له على سبيل الاستهزاء: ائتنا بما تعدنا به من عذاب إن كنت من الصادقين[1].

قال طنطاوي: «والجملة الكريمة تحكي لونا عجيبا من ألوان توغلهم في الجحود والضلال، حيث طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم تعجيل العقوبة التي توعدهم بها، بدل أن يطلبوا منه الدعاء لهم بالسلامة والأمان والخير والعافية»[2].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣-٥٤].

يخبر الله تعالى عن جهل المشركين وحماقتهم في استعجالهم إيقاع عذاب الله بهم، ولولا كون العذاب محددا بوقت معلوم، ولولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة؛ لجاءهم العذاب قريبًا سريعا كما استعجلوه، وسوف يأتيهم بالتأكيد فجأة، وهم لا يحسون بمجيئه، بل يكونون في غفلة عنه، ثم أكد تعالى طلبهم نزول العذاب بقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: يطلبون منك حدوث العذاب، وهو واقع بهم لا محالة، وإن جهنم ستحيط بهم من كل جانب[3].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤١٣.
(٢) التفسير الوسيط، ٧/ ٤٤٧.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/ .

موانع العذاب

يستطيع المرء أن يدفع العذاب عن نفسه من خلال أمور كثيرة، منها:

أولًا: التوبة:

التوبة مانع شامل يمنع من إنفاذ وعيد جميع الذنوب، الكفر فما دونه من المعاصي، فليس شيء يغفر الله به جميع الذنوب إلا التوبة النصوح.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

قال الإمام الشوكاني: «واعلم أن هذه الآية أرجى آية في كتاب الله، لاشتمالها على أعظم بشارة، فإنه أولا: أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم، ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي، ثم عقب على ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة، ثم جاء بما لا يبقى بعده شك ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ﴾ ثم لم يكتف بما أخبر به عباده من مغفرة كل ذنب، بل أكد ذلك بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ فيا لها من بشارة ترتاح لها النفوس، وما أحسن تعليل هذا الكلام بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾»[4].

(٤) فتح القدير، ٤/ ٥٣٨.

وقال الله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩].

أي: فمن تاب إلى الله عز وجل توبة صادقة من بعد ظلمه لنفسه بسبب إيقاعها في المعاصي التي من أكبرها السرقة وأصلح عمله بالطاعات التي تمحو السيئات فإن الله يتوب عليه أي: يقبل توبته، ويغسل حوبته، إن الله واسع المغفرة والرحمة ومن مظاهر ذلك أنه سبحانه فتح لعباده باب التوبة والإنابة، فالآية الكريمة ترغب العصاة من السراق وغيرهم في التوبة إلى الله، وفي الرجوع إلى طاعته حتى ينالوا مغفرته ورحمته(١).

وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(إن الله عز وجل يبسط يده بالليل، ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار، ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها)**(٢).

ثانيًا: الاستغفار:

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١١٠].

أي: ومن يعمل عملًا سيئًا يؤذي به غيره، أو يظلم نفسه بارتكاب الفواحش، التي يعود معظم ضررها على نفسه كشرب الخمر، وترك فرائض الله التي فرضها على عباده ثم بعد كل ذلك يستغفر الله، فيتوب إليه توبة صادقة نصوحًا يجد الله بفضله وكرمه غفورًا رحيمًا(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم)**(٤).

والاستغفار لا يمكن أن يمنع العذاب لمن مات على الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

والمعنى: إن الله لا يغفر لكافر مات على كفره، ويغفر ما دون الكفر من الذنوب والمعاصي لمن يشاء أن يغفر له إذا مات من غير توبة، فمن مات من المسلمين بدون توبة من الذنوب التي اقترفها فأمره مفوض إلى الله، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه ثم أدخله الجنة(٥).

---

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٤/ ١٣٦.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول التوبة، رقم ٢٧٥٩، ٤/ ٢١١٣.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٥/ ١٩٥.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار، رقم٢٧٤٩، ٤/ ٢١٠٦.
(٥) انظر: الوسيط، الزحيلي، ١/ ٣٢٨.

ثالثًا: دعاء المؤمنين:

يسن للمؤمن الدعاء لإخوانه المؤمنين بالمغفرة والرحمة، وهذا يدل قطعًا على انتفاع المدعو له بدعاء إخوانه المؤمنين، واستغفارهم له.

قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: واستغفر أيها الرسول الكريم لذنوب أتباعك وأمتك، بالدعاء للمؤمنين والمؤمنات بالمغفرة عما فرط من ذنوبهم، وهذا فيه تعليم للصحابة وللمؤمنين أن يدعوا لإخوانهم المؤمنين[١]، وبهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

أي: يا ربنا اغفر لنا ذنوبنا، واغفر لإخواننا في الدين الذين سبقونا بالإيمان فهم أسبق منا إلى الخير والفضل[٢].

وعن عوف بن مالكٍ رضي الله عنه قال: **(صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على جنازةٍ، فحفظت من دعائه وهو يقول: (اللهم اغفر له وارحمه وعافه، واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارًا خيرًا من داره، وأهلا خيرًا من أهله وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر) قال: (حتى تمنيت أن أكون أنا ذلك الميت)**[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(ما من ميتٍ تصلي عليه أمةٌ من المسلمين يبلغون مائةً، كلهم يشفعون له، إلا شفعوا فيه)**[٤]

والدعاء بالمغفرة والرحمة لا يجوز لمن لقي الله كافرًا، ولا يمنع إنفاذ وعيد الله فيه.

قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦].

قال طنطاوي: «أي: إن هؤلاء الراسخين في الكفر والنفاق، قد استوى عندهم استغفارك لهم وعدم استغفارك، فهم لتأصل الجحود فيهم صاروا لا يفرقون بين الحق والباطل، ولا يؤمنون بثواب أو عقاب،

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٨/ ٥١٠.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الدعاء للميت في الصلاة، رقم٩٦٣، ٢/ ٦٦٢.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب من صلوا عليه مائة شفعوا فيه، رقم٩٤٧، ٢/ ٦٥٤.

ولذلك فلن يغفر الله تعالى لهم مهما حرصت على هدايتهم وصلاحهم»[1].

وبهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠].

رابعًا: وجود النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

سبب نزول الآية: عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال أبو جهلٍ: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليمٍ، فنزلت الآية[2].

والمعنى: وما كان الله مريدًا لتعذيب هؤلاء الذين دعوا بهذا الدعاء الغريب تعذيب استئصال وإهلاك، وأنت مقيم فيهم- يا محمد- بمكة، فقد جرت سنته سبحانه ألا يهلك قرية مكذبة وفيها نبيها والمؤمنون به حتى يخرجهم منها ثم يعذب الكافرين، واللام في قوله: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ لتأكيد النفي، وللدلالة على أن تعذيبهم والرسول صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم غير مستقيم في الحكمة[3].

والشفاعة التي تمنع أو تخفف من العذاب وخصوصًا في الآخرة، وهي على ثلاثة أنواع:

١. الشفاعة العظمى.

وهي شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في أهل الموقف ليفصل الله بينهم، وهي المقام المحمود له، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة، وفيه أن بعض الناس يقول: **(ائتوا النبي صلى الله عليه وسلم فيأتوني فأسجد تحت العرش، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، واشفع تشفع، وسل تعطه)**[4].

٢. الشفاعة في أهل الجنة.

وهي ثلاثة أنواع:

- شفاعته صلى الله عليه وسلم في أهل الجنة ليدخلوها.
- شفاعته صلى الله عليه وسلم في رفع درجات أهل الجنة.

(١) التفسير الوسيط، ١٤/ ٤٠٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله تعالى: (وما كان الله معذبهم)، رقم٢٧٩٦، ٤/ ٢١٥٤.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٥٢١. وانظر: لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٣٠٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: (إنا أرسلنا نوحًا)، رقم ٣٣٤٠، ٤/ ١٣٤.

- شفاعته صلى الله عليه وسلم في بعض المؤمنين ليدخلوا الجنة بلا حساب ولا عذاب.

٣. **الشفاعة لأهل الكبائر.**

وهي نوعان:

- شفاعته صلى الله عليه وسلم فيمن استحق النار من أهل الكبائر أن لا يدخلها.
- شفاعته صلى الله عليه وسلم فيمن دخل النار من أهل الكبائر أن يخرج منها.

فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: **(لكل نبي دعوةٌ دعاها لأمته، وإني اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة)**[١].

إذن فالشفاعة خاصة بأهل التوحيد ولا تكون للكفار، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قلت: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال: **(لقد ظننت، يا أبا هريرة، أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قبل نفسه)**[٢].

الحكمة من العذاب

لا يخلو شيء في الوجود من حكمة لله عز وجل منه، وكذلك العذاب له حكم جليلة، منها:

أولًا: الفتنة والامتحان للمؤمنين والمحق للكافرين:

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

والمعنى: أظن الناس أن يتركوا بدون امتحان، واختبار، وابتلاء، وبدون نزول المصائب بهم؛ لأنهم نطقوا بكلمة الإيمان؟ إن ظنهم هذا ظن باطل، ووهم فاسد؛ لأن الإيمان ليس كلمة تقال باللسان فقط، بل هو عقيدة تكلف صاحبها الكثير من ألوان الابتلاء والاختبار، عن طريق التعرض لفقد الأموال والأنفس والثمرات، حتى يتميز قوي الإيمان من ضعيفه[٣].

قال القرطبي: «والمراد بالناس قوم من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام، كسلمة بن هشام، وعياش بن ربيعة، والوليد

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب اختباء النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٠٠، ١/ ١٩٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الحرص على الحديث، رقم ٩٩، ١/ ٣١.

(٣) انظر: تفسير السرقندي، ٢/ ٦٢٤.

بن الوليد فكانت صدورهم تضيق بذلك، وربما استنكروا أن يمكن الله الكفار من المؤمنين. قال مجاهد وغيره: فنزلت هذه الآية مسلية ومعلمة أن هذه هي سيرة الله في عباده، اختبارًا للمؤمنين وفتنة[1].

قال ابن عطية: «وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما في معناه من الأقوال، فهي باقية في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، موجود حكمها بقية الدهر»[2].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

«أظننتم أيها المؤمنون أنكم تدخلون الجنة بمجرد الإيمان دون أن يصيبكم ما أصاب الذين سبقوكم من شدائد في الأنفس والأموال، ومن مخاوف أزعجتهم وأفزعتهم حتى بلغ الأمر برسولهم وبالمؤمنين معه أن يقولوا وهم في أقصى ما تحتمله النفوس البشرية من آلام: متى نصر الله؟!!»[3]

ويأتي هذا الامتحان في شدته على قدر الإيمان، فعن سعد رضي الله عنه قال: **(قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أشد بلاءً: قال: (أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة)**[4].

وكما أن العقاب يكون امتحان للمؤمنين، يكون في المقابل محق للكافرين قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

قوله: ﴿وَيَمْحَقَ﴾ من المحق وهو محو الشيء والذهاب به، والمعنى: ولقد فعل سبحانه ما فعل في غزوة أحد، لكي يطهر المؤمنين ويصفيهم من الذنوب، ويخلصهم من المنافقين المندسين بينهم، ولكي يهلك الكافرين ويمحقهم بسبب بغيهم وبطرهم[5].

ثانيًا: تكفير الذنوب ورفع الدرجات للمؤمنين:

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

الابتلاء عندما ينزل يكون للكفار محق

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ٣٢٣.
(٢) المحرر الوجيز، ٤/ ٣٠٥.
(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي، ١/ ٤٦٢.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٦٠٧، ٣/ ١٥٩.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٣٠، رقم ٩٩٢.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥٠.

وعذاب، وللمؤمنين الصابرين المحتسبين تكفير لذنوبهم ورفعة لدرجاتهم، والمعنى: ولنصيبنكم بشيء من الخوف وبشيء من الجوع، وبشيء من النقص في الأنفس والأموال والثمرات، ليظهر هل تصبرون أو لا تصبرون، فنرتب الثواب ورفع الدرجات على الصبر والثبات على الطاعة، ونرتب العقاب على الجزع وعدم التسليم لأمر الله عز وجل، وبهذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه)**[١].

وقد تصيب المؤمن المصيبة فترفع درجته في الآخرة إذا صبر واحتسب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن الرجل لتكون له المنزلة عند الله تبارك وتعالى فما يبلغها بعملٍ، فلا يزال يبتليه حتى يبلغه ذلك)**[٢].

ومن هذا الباب، المرض فقد يكفر الله ذنوب عبد بمرض يصيبه فعن جابر بن عبدالله، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، دخل على أم السائب أو أم المسيب فقال: «ما لك؟ يا أم السائب أو يا أم المسيب تزفزفين؟» قالت: الحمى، لا بارك الله فيها، فقال: **(لا تسبي الحمى، فإنها تذهب خطايا بني آدم، كما يذهب الكير خبث الحديد)**[٣].

إذًا فتعجيل العقوبة في الدنيا للعبد الصالح إنما هو خيرٌ له، فعليه ألا يقنط أو ينحرف عن الطريق لأن عذاب الآخرة أشد وأبقى بينما عذاب الدنيا مهما كانت شدته فإنه يزول بعد فترة أو تعقبه السعادة الأبدية بإذن الله تعالى، بشرط أن يكون صاحبه مؤمنًا صالحًا، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عليه ذنوبه حتى يوافيه يوم القيامة)**[٤].

ثالثًا: التحذير من التمادي في المعصية:

فتأتي مصائب الدنيا بمثابة إشارات وتنبيهات من الله تعالى للعبد أنه غارق في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، رقم ٥٦٤١، ٧/ ١١٤.

(٢) أخرجه البيهقي في الآداب، رقم ٧٣٥، ١/ ٢٩٩.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٣٥، رقم ١٦٢٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، ٤/ ١٩٩٣، رقم ٢٥٧٥.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم ٢٣٩٦، ٤/ ٦٠١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ١١٨، رقم ٣٠٨.

معصيته ويجب الرجوع قبل فوات الأوان كما قال الله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

أي: ولنذيقنهم من العذاب الأدنى الأهون والأقرب والأقل وهو عذاب الدنيا، عن طريق ما ننزله بهم من أمراض وأسقام ومصائب متنوعة، دون العذاب الأكبر أي: الأشد والأعظم والأبقى، وهو عذاب الآخرة، لعلهم يرجعون عما هم فيه من شرك وكفر وفسوق وعصيان[1].

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

يؤكد الله تعالى الحض على التضرع فقال: فهلا تضرعوا إلينا خاشعين تائبين حين جاءهم بأسنا وظهرت بوادر العذاب، ولكن لم يفعلوا وقست قلوبهم، أي: ما رقت ولا خشعت، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، فلم يعتبروا، وزين لهم الشيطان أفعالهم من الشرك والفجور والمعاندة والمعاصي، ووسوس لهم بأن يبقوا على ما كان عليه آباؤهم[2].

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن بعض الذنوب أجدر بوقوع عذاب الدنيا فقال: **(ما من ذنبٍ أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم)**[3].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢١/ ٢٣٣.

(٢) انظر: الوسيط، الزحيلي، ١/ ٥٤٨.

رابعًا: العبرة والعظة:

قد يأتي العذاب عقوبة لصاحب المعصية أو لأهلها ليكونوا عبرة وعظة لمن بعدهم كما فعل الله بالأمم السابقة، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

أي: أن هذه القرية المدمرة بسبب فسوق أهلها، وعصيانهم لأمرنا، ليست هي القرية الوحيدة التي نزل بها عذابنا، بل إننا قد أهلكنا كثيرا من القرى من بعد زمن نوح عليه السلام كقوم عاد وثمود وغيرهم ممن استحبوا العمى على الهدى، وآثروا الكفر على الإيمان والغي على الرشد.

ثم ختم سبحانه الآية الكريمة بالتهديد الشديد لمن يخالف أمره فقال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ فهذه الآية الكريمة بجانب أنها تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم فهي أيضًا تهديد للمشركين، وإنذار لهم بأنهم إذا ما استمروا على كفرهم، ومعاداتهم للحق، وتطاولهم

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب البغي، رقم ٤٢١١، ٢/ ١٤٠٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٩٤، رقم ٥٧٠٤.

على من جاء به وهو الرسول صلى الله عليه وسلم فسيكونون محلًا لغضب الله تعالى وسخطه، ولنزول عذابه الذي أهلك به أمثالهم في الشرك والكفر والجحود[1].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠]

أي: جلسوا في مساكنهم فلم يسيروا في جنبات الأرض، فيشاهدوا كيف كانت عاقبة المكذبين من قبلهم كقوم عاد وثمود ولوط وغيرهم، فكان الجواب: دمر الله تعالى عليهم مساكنهم وأموالهم، وقوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ وعيد وتهديد لهؤلاء الكافرين المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم أي: هكذا كانت عاقبة المجرمين السابقين، وللكافرين المعاصرين لك -أيها الرسول الكريم- السائرين على درب سابقيهم في الكفر والضلال والطغيان، أمثال تلك العاقبة السيئة[2].

[انظر: الإهلاك: حكم الإهلاك]

موضوعات ذات صلة:

الإهلاك، الجزاء، الجنة، النار، اليوم الآخر

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٤٠٦.
وانظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠/ ٣١٣.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٣٥.